فى الحب أيضا

وجواب بعض المسائل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

يظهر أنى لم أحسن البيان فيما كتبته عن الحب والوقت الذى تكون فيه النفس أحسن تهيؤاً له ، فقد تلقيت رسائل من هنا وههنا . ومن مصر وغيرها من أقطار العرب ، جملة مااستخلصته منها أنى حمار طويل الأذنين ، وأن لى نهيقاً عالياً ولكنه نهيق لا أكثر ، وقد أكون كذلك فما أدرى ، ولو أنى عرفت نفسى على حقيقتها لكان هذا حسى . وعزائى ، إذا كنت هذا ، قولُ رصيفى الفاضل ابن الرومى :

« فى طبعِ ملائكىٌ لديه عازف صادف عن الإطراب
أو حمارية فمقدار حظى شبعةٌ عنده بلا إتعاب

فبين الملائكية والحمارية هذه الجامعة - إن الملائكية تغرى بالعزوف والزهد ترفعاً أو استنكافاً ، أو لا أدرى لماذا ، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة ، وإن الحمارية تؤدى أيضاً إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الادراك وعدم الشعور بالحاجة . ولا تعنينى الاسباب ، وإنما تعنينى النتيجة وهى كما ترى واحدة والحمد لله ، ولقد أطلت النظر إلى وجهى فى المرآة لما وردتنى هذه الرسائل ورفعت يدى إلى أذنىّ أتحسسهما ثم قلت لنفسى إن الحمارية طبيعية لا صورة ، وارتددت عن المرآة ورأسى مثنىٌ على صدرى وأذناى مسترخيتان - مجازاً .

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلى ، إني لو قضيت يوماً على شاطىء البحر فى الاسكندرية لأدركت أن الحب يجىء فى وقت النشاط الجم لا الفتور كما زعمت ، واعترف لى غير واحد أنهم أحبوا على الريق وذكر لى أحدهم أنه كان يلقى صاحبته كل صباح فأحبها ، وقال ثان انه سمع صوتاً فى الصباح فخيل اليه أنه يعرفه ، فلما رآها عرف أن ذاكرته لم تخنه ، وكان أن أحب ذات الصوت الذى أيقظه من النوم ، ولكن الله لم يكتب له الفوز بها . وذكر ثالث أن المرأة تتزين فى كل وقت - فى البيت وخارج البيت الخ الخ فما بى إلى الإطالة حاجة لهذا قلت إنى لم أحسن البيان ، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب فى الصباح أو الظهر أو العصر أو الليل ، وإنما أردت أن أبين أن الحب - ككل مرض - تكون فرصته حين يكون الجسم متعباً قليلا وان كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفطن اليه . وهذا التعب الخفيف لا وقت له ، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتى : « يا امرأة ، هل رأيت أحداً قبلى يفطر على الاسبرين؟ » فتسألنى : « أبك حاجة إلى الاسبرين؟ » فأقول : « نعم بى حاجة اليه . . إلى صيدلية كاملة من الاسبرين ... ولكنى سأحاول الاستغناء عنه . . إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة . . الناس غيرى يصبحون وريقهم يجرى على الفول المدمس والبيض والقشدة واللبن والشاى والمربيات وما إلى ذلك . أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شىء من ذلك كل همه قرص من الاسبرين يعفيه من وقع هذه الفؤوس التى تحطم رأسه »

فتقول : « الذنب لك . . من قال لك افعل مافعلت البارحة ؟ »

فأقول : « يا ستى ان المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يجىء دور الحساب ... ثم إنى لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة . . كلا . . لا يختلج فى ذاكرتى شىء . . »

وأما صاحبنا الذى كان يرى فتاته كل صباح فأحبها ، فأقول له ان هذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لى ما وقع له ، أيام كنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية ، وكان يبلى فى « البغالة » وطريق إلى المدرسة من درب « الجاميز » وكنت أرى فى كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الازار الأسود - وكان هذا هو اللباس الشائع فى ذلك الزمان - ومعها خادمها يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها ، وهى ذاهبة إلى المدرسة السنية ، وعائدة منها إلى البيت فكنا نلتقى كل يوم ، واستملحت وجهها ، وأعجبنى قدها ، فكنت أتعمد أن أقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة .

ومضت سنوات طويلات وأصبحت مدرساً ، وإنى لراكب مرة إلى الجيزة واذا بى أرى أمامى فتاتى القديمة ، ومعها طفلان

فعرفتها ، فما تغيرت عن العهد بها ، ونظرت حولى فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها : « اسمحى لى . . إننا صديقان قديمان اذا كانت ذاكرتك كذا كرتى . . هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذى كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح فى شارع درب الجماميز وأنت ذاهبة إلى المدرسة ؟ »

فابتسمت وقالت : « أظن أنى أذكره » .

قلت — ويداى على طفليها — : « وهذان ... المحروسان أهما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدى ؟ » .

ففهمت وهزت رأسها أن نعم ، فقلت : « وتسمحين لى أن أقبلهما ، إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما ؟ »

فهزت رأسها مرة أخرى ، فقبلتهما وقلت كالمعتذر : « اذكرى أنهما كان يمكن أن يكونا لى » .

وقصت على قصة عجيبة ، فقالت : إن جاراً لها أحبها وإن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة ، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق ، فانتحر ، فسألتها : أين كنت تسكنين ؟ » فذكرت لى اسم الشارع والحارة ، فاذا الذى انتحر قريب لى ! وقلت لها : أما أنا وأنت فلم ننتحر ... آثرنا أن نتزوج ... أظن أن الأمرين سيان ... » .

فأنا أيضا أحببت فى الصباح ، كما أحب الفاضل الذى كتب إلى ، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها .

وصاحبنا الذى سمع الصوت فى الصباح فتذكره — هذا أيضا لم يحبب على الريق وانما استيقظت فى نفسه ذكرى . ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الحلو لاستغرب ولكان قصاراه أن يستعذبه وأن يشتاق أن يرى صاحبته ، ولما منعه ذلك أن يتثاءب ويتمطى ويشتهى أن يعاوده النوم .

بقيت الزينة وأظن أنى قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتنها بالزينة ، وانها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج فى أى وقت . فلا خلاف بينى وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة ، لأن طبيعتها تقضى عليها بذلك حتى ولو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفة الألوان . ولو ظللت تنهى المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هى تزهد فى المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدى أو نحوه . وما أكثر من قلت لهن : « أين منديلك ؟ » فتخرجه وتريه وتسألنى : « ماذا تريد أن تصنع به ؟ » فأقول : « لست أحب أن أرى فمك الجميل كالطلمة المشقوقة ، فهاتى المنديل لأمسح هذا الأحمر » فتأبى وتقاوم ، فألح عليها وأقول : « ثم إن هناك داعياً آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقبيل » فيكون هذا مغرياً لها بالاصرار على ترك الأحمر على شفتيها ، على حين كنت أظن — لغرورى — أنى زهدتها فيه . . !!

وأحمد الله الذى أعفانى وأراحنى من سخافة المساحيق ، فان زوجتى لا تتخذها ، فليس فى بيتى ذرة من الأحمر أو الأبيض . ومن القواعد المقررة عندنا أن على من تزورنا من قريباتنا أو من هن فى حكمهن لتقض يوماً أو أياماً معنا ، أن تجىء معها بمساحيقها ، فلن تجد حتى ولا ما ينفض على الوجه بعد حلاقة الذقن . وأحسب أن زوجتى اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهى لا تعنى الآن بشىء من هذه المزينات . .

ولست مجنوناً حتى أقف على شاطىء البحر وأنظر إلى الفتيات الناهدات ، الرشيقات ، المشوقات ، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذى عليها ، فإنى محتاج إلى عقلى كله . ولكنى أحسب الفاضل الذى كتب إلىّ يدعونى إلى ذلك ، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتهاء ، لا حب ، وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة ، أن تدركه الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدرى أى هؤلاء الجميلات أولى بحبه ، فان لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره . ولو أنى وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتهى أن أضمهن كلهن فى عناق واحد ، فان الظلم قبيح . ونفسى لا تطاوعنى على غمط الجمال فى أية صورة من صوره . ومن يدرى ... لعل القدرة على إدراك معانى الجمال فى مظاهره المختلفة هى التى وقتنى الحب ، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها . ولكنى لست واثقاً أن هذا كهذا ، وإن كان يحلو لى أن أغرّ نفسى به . والأرجح انها بلادة ، وان جلدى سميك ...

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة ، والنشاط الصحيح وبين الاعجاب والحب ؛ وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشى الخيالية التى كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذيان المرضى ، فليس الحب إلا مرضاً فالشأن فيه هو الشان فى كل